مجلة العاصمة

المجلد الثالث، ٢٠١١

مجلة مسجلة لدى المسجل للجرائد في الهند (RNI) برقم KERARA00011
ومجلة معتمدة لدى جامعة كيرلا، الهند

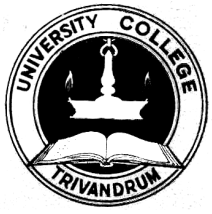

قسم العربية، كلية الجامعة، ترونتبرم، كيرالا، الهند، ٦٩٥٠٣٤

تاريخ التبادل الثقافي والحضاري بين الهند والعرب

د/ ن. عبد الجبار

أستاذ مشارك ورئيس قسم العربية، كلية الفاروق، كيرالا، الهند

إن الهنود والعرب قد أثر الشعب الواحد منهما في الآخر عبر التاريخ في مجالات الحياة المختلفة–الاجتماعية والفكرية. على هذا فقد نتجت عن ذلك صور معينة للشعب، والواحد قد انعكست على الشعب الآخر. فالصورة التي كانت عند العرب للهند هي صورة احترام وإكبار لما كان عند الهنود من فلسفة وعلوم وآداب، ولما كانوا يتصفون به من ذكاء وحصافة وحكمة ولما كان لهم من فضل كبير في تقدم الحضارة الإنسانية. ومن جهة أخرى فإن العرب كانوا يرونهم في الفرق والنحل الدينية والتقسيم الاجتماعي (الطبقات)، أمور لا تليق بالشعب العربي. وقد أوجد العرب وحضارتهم واتساع نطاق تفكيرهم وتسامحهم الديني وعنايتهم بالعدل صورة طيبة في نفوس الهند. وفي مجال السياسة كانت العلاقات على العموم ودية وسليمة باستثناء الحملات العربية على شمال غرب الهند في الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام، وقد منح العرب الذين استقروا في الهند حرية دينية وإدارية تامة وحتى السلطة من قبل بعض الحكام الهنود. والتجار العرب الذين كانوا يزورون جنوب الهند والمناطق الساحلية كانوا موضع ترحيب أعطوا التسهيلات الكثيرة للتجارة والعبادة.

ودخل الإسلام إلى الهند عن طريق السند وملتان، وكان ذلك حينما قدمت إليها الجيوش الإسلامية العربية يقودها شاب لم يتجاوز عمره سبعة عشر عاما وهو عماد الدين محمد بن قاسم، فقد تقدمت جيوش هذا البطل العربي المسلم بطريق شيراز ومكرن سنة ٩٤ من الهجرة (٧١١م). وكانت هذه أول علاقة بين الهند والعرب بعد ظهور الإسلام، ولكن والهند تعتز بحضارة أصيلة عربية في القدم، وفلسفة عميقة، وعلوم رياضية دقيقة، وخيرات لم يكن تأثيرها بعيد المدى، وبعد ذلك مرت الهند بتقلبات عديدة إبان الحكم الإسلامي بالهند. عظيمة من حبوب وثمار وفواكه ومواد خامة. والمسلمون يحملون معهم محصول عقول كبيرة كثيرة، ونتاج حضارات متنوعة متعددة، يجمعون بين سلامة ذوق العرب ولطافة حس الفرس وفروسية الترك. وكانوا يحملون للهند وأهلها غرائب كثيرة وطرفا غالية، وكان أغرب ما كانوا يحملون في الدين، توحيد الإسلام النقي، الذي لا يرى الوساطة بين العبد وربه في العبادة والدعاء. فكان أعجب ما حمله المسلمون معهم هي المساواة الإنسانية التي لم يكن للهند عهد بها، فلا نظام طبقات ولا منبوذ ولا نجس بالولادة ولا جاهل يحرم عليه التعليم، ولا تقسيم أيد للحرف والصناعة يعيشون معا ويأكلون معا، ويتعلمون سواء، ويختارون ما يشاءون من الحرف والصناعة. وقد كانت صدمة عنيفة للذهن الهندي والمجتمع الهندي، وقد قرر هذه الحقيقة التاريخية جوهرلال نهرو، رئيس وزراء الهند سابقا إذ قال: إن دخول الغزاة الذين جاءوا من شمال غرب الهند ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند، أنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي، أنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند، أن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ويعيشون فيها أثرت في أذهان الهندوس تأثيرا عميقا، وكان أكثر خضوعا لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندوكي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية[١].

احترم العرب المسلمون المرأة واعترفوا بحقوقها وكرامتها كعضو محترم من أعضاء الأسرة الإنسانية وشقيقة الرجل، ولكن في الهند كانت السيدات يحرقن أنفسهن بالنار على وفاة أزواجهن، ولا يرين ولا يرى المجتمع لهن حقا في الحياة

[١] Discovery of India , p.p 335 – 336 quoted from " المسلمون في الهند لأبي الحسن علي

بعد الأزواج. ويقول السيد غلام على آزاد البلكرامي" إن المرأة في دينهم لا تنكح إلا زوجا واحدا فحظ عيشها منوّط بحياة الزوج، وإذا مات فالأولى في دينهم أن تحرق نفسها بعد، فإنهم يحرقون موتاهم. والمرأة التي تعرّض نفسها مع زوجها على النار يسمونها "ستي" نسبة إلى "الستة" بفتح السين المهملة وتشديد الفوقانية وهو العفاف وياء النسبة عندهم ساكنة"[١]. وكذلك نقلوا إلى الهند علوما جديدة، ومنها علم التاريخ ، فقد كانت الهند فقيرة في التاريخ. وليس في مكتبتها كتاب تاريخ بالمعنى الصحيح، إنما هنالك صحف دينية أو ملامح مقصورة على حروب، أما المسلمون فقد كونوا في التاريخ مكتبة هائلة من أوسع المكتبات التاريخية في العالم. وقد اكتسبت الهند من المسلمين بصفة عامة توسعا في الخيال وجدة في التفكير ومعاني جديدة في الأدب والشعر. وكان تأثير المسلمين في المدنية والصناعة وأساليب الحياة أبرز وأقوى منه في نواح أخرى، فقد أدخلوا في هذه البلاد حياة جديدة تختلف عن الحياة القديمة في هذا القطر؛ بنوا مصانع كثيرة للنسج والوشي والتطريز والنحت، ومصنوعات العاج والمنسوجات الحريرية وصناعة الورق. وأنشئوا الحدائق والبساتين وحفروا الآبار والعيون، وأسسوا المستشفيات والمؤسسات الخيرية والمشاريع المدنيّة.

وبالإضافة إلى هذا فقد كان مما أدخله المسلمون العرب ونقلوه إلى الهند النظافة والأناقة، والاحتفاظ بأصول الصحة، وتهوية البيوت وتنويرها والتأنق في الأواني، وقد أحدث المسلمون انقلابا عظيما في المجتمع وفي الحياة المنزلية وفي نظام تأثيث البيوت، وكان عندهم من العوائد الهدية بالزهور والرياحين يتهادونها أيام المواسم والأعياد. فن الموسيقي عندهم فن أصيل عريق. اكتسب أصالته من صدق العاطفة وعراقته من سماحة الفطرة، ولا يزدهر فن الموسيقي أو الغناء إلا حيث صفاء النفس ونقاء السريرة ورفاهة الحس. بدأت الموسيقى عندهم بالدف والمزهر والمزمار. وكانت القبيلة التي يظهر فيها مغن أو موسيقي تتقاطر عليها شتى القبائل للتهنئة. وكان لفلاسفة العرب المرموقين الدور الكبير في إرساءهم فن الموسيقى حتى أنهم وضعوا له القوانين والأسس التي يسير عليها هذا الفن إلى اليوم وأدخلوا الآلات الموسيقية لأول مرة في تاريخ فن الموسيقي. ومن مظاهر تأثير العرب في ثقافة الهند وحضارتها تأثير اللغة العربية التي تخصهم والتي حملوها إلى هذه البلاد في لغات الهند ولهجاتها وأدبها وحضارتها. وغزت الثقافة الهندية وحضارتها حتى امتزجت بلحمها ودمها وأصبحت جزءا من أجزاءها. وقامت في الهند مدرسة حضارية فكرية علمية ذات شخصية خاصة وطابع خاص أنجبت عددا كبيرا من النوابغ. كانوا أصحاب مدارس خاصة وفاتحي آفاق جديدة، ليس في العلوم الدينية كالتفسير والحديث والفقه والعقائد فحسب، بل في علوم اللغة والآداب العربية، عدت كتبهم من مراجع الرئيسية في العلوم، بعضها فريد لا نظير له في المكتبة الإسلامية العالمية. إن دراسة اللغة والأدب العربي والعلوم الإسلامية التقليدية والعلوم العقلية التي جاءت من التراث العربي أنجبت كمية كبيرة من الأدب العربي في الهند. وقد استخدم أهل مليبار في جنوب الهند الخط العربي لكتابة "المليالم" لغتهم المحلية. وقد وضعت فيها مؤلفات متعددة تعالج شتى المواضيع ولا تزال موجودة إلى الآن. والمسلم المليباري ينطق العربية كما ينطقها العربي تماما.

واستوطن العرب التجّار سواحل كيرلا للتجارة والدعوة الإسلامية وتزوّجوا من نسائها. وهم الذين أطلقوا على هذه البقعة اسم "مليبار"؛ وكانت مزدحمة بسكّان متديّنين بأديان مختلفة؛ وكان الهندوكيّون أجناسا شتّى يختلف بعضها عن الآخر في العقائد والتقاليد والعبادات. وهذه الطبقات استوطنتها في القرون المختلفة قديما، ولمّا دخلت فيها الأديان الخارجيّة مثل اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام اعتنقوها. والهندوكيّون هنا اعتنقوا دين الإسلام في عصور مختلفة وامتزجت ثقافتهم وحضارتهم بتقاليد العرب وعاداتهم، واستقبلوا العرب ودين الإسلام استقبالا حارّا، فتراث مسلمي كيرلا عربيّ خالص. والبراهمة من الطبقات الهندوكيّة؛ برى بعض المؤرّخين أنهم أتباع إبراهيم عليه السلام وكلمة "البراهمة " تمّ اشتقاقها من إبراهيم (ع). والبراهم يلبسون خيطا يتقلّدون به كحمالة السيف وهذه عادة تشبه ارتداء المسلمين بثوب الإحرام إذا

[١] سبحة المرجان في آثار هندوستان لغلام علي آزاد البلغرامي المجلد الثاني ص: ٣٢٦

أحرموا للحجّ الذي أذن به إبراهيم (ع). وبعض المؤرّخين على رأي أن" البراهمة" أقبلوا على كيرلا للتجارة واستوطنوها منذ القدم. وكنتيجة طبيعيّة لهذه العلاقات الوطيدة تسارع انتشار اللغة العربيّة ورواجها، وتوغّلت فيها اللغة العربيّة وترعرعت في تربتها الخصبة. إن العلاقة الودّيّة بين أهل مليبار وتجّار العرب فتحت آفاقا جديدة لتبادل الأفكار والخواطر وتفاهم الثقافات واللغات. واعتبرت اللغة العربيّة قبل قدوم الإسلام لغة تجاريّة بين الشعبين ونالت قبولا حسنا. دخل الناس في الدين الجديد أفواجا، ولجأوا إلى واحة الحرّيّة والمساواة في الإسلام من دينهم الذي يقسّمهم على فئات وطبقات، وقد كانت دراسات اللغة العربيّة، لغة القرآن، عند الأقدمين مرتبطة بالعامل الدّيني، فشرع الإسلام يسير مع اللغة والثقافة العربيّة جنبا إلى جنب منذ بزوغ قمر الإسلام في الديار الملیباريّة. وليس من شكّ أن فهم العربيّة يساعد على فهم الإسلام جيّدا ويصعب فصل العربيّة عن الإسلام حيث أنّ عباداته المفروضة لا بدّ أن تؤدّي بالعربيّة فقط.

كانت علوم الهند وفنونهم القديمة، منها والتي ظهرت في العصور الوسطى، معروفة لدى معاصريهم من العرب المتعلمين، وذلك عن طريق ترجمة الكتب الهندية إلى العربية أو عن طريق وصفها في الكتب العربية التي تعني بتاريخ العلم. ثمة إشارات مبعثرة في الكتب العربية الأدبية وغيرها من تلك الفترة التي تلقي الضوء على معرفة للفنون الهندية الجميلة التي أنتجت في العصور الوسطى، وثمة إشارات في الأدب العربي إلى الموسيقى الهندية والآلات الموسيقية الهندية التي عرفها العرب. يقول الدكتور سيد مقبول أحمد: " ويوجد اليوم تعاون وثيق بين الهند وعدد من الدول العربية في الحقول التربوية والفنية. ثمة عدد من المعلمين والطلاب والفنيين الهنود في كثير من الأقطار العربية مثل مصر والعراق والمملكة العربية السعودية وليبيا والكويت وغيرها. ومثل ذلك فإن عددا من الطلاب العرب يدرسون في الجامعات الهنديّة. وهذا بحد ذاته دليل على رغبة نامية في اتجاه التعاون العلمي والفني. والعالم العربي رقعة واسعة تمتد من المغرب غربا إلى العراق شرقا، ونحن في الهند نعرف الشيء القليل عن المغرب أو تونس أو الجزائر أو ليبيا بالرغم من أنه، في حقيقة الأمر – ثمة تشابه بين عدد من القضايا الاجتماعية والاقتصادية التي تواجهها تلك البلاد وتلك التي نواجهها نحن، وإذن فإنه من الضروري لنا أن نتعرف بالأساليب التي يتبعونها في حل مشاكلهم كما أنه ضروري لهم أن يتعرفوا بالوسائل التي نتبعها نحن في حل مشاكلنا. والسبيل الوحيد الواضح لتحقيق ذلك هو أن يكون بيننا من التبادل الثقافي أكثر مما يمكن إقامته وأن تنقل الآثار العربية الحديثة التي تعالج الحياة العربية إلى الهندية أو غيرها من اللغات الهندية، وأن تنقل المؤلفات والكتابات الهندية إلى العربية. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن لنا بواسطتها أن نعكس التراث الهندي والثقافة الهندية الحديثة على العالم العربي، والتي يمكن لهم بواسطتها أن يعكسوا ما عندهم علينا. أما الثقافة العربية فلا يزال الشعب الهندي متمسكا بها ومحافظا عليها ومنتجا فيها. "[١].

المراجع والمصادر

١. المسلمون في الهند لأبي الحسن علي الندوي
٢. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن على الندوي
٣. الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها لأبي الحسن علي الندوي
٤. العلاقات العربية الهندية للدكتور سيد مقبول أحمد
٥. سبحة المرجان في آثار هندوستان للسيد غلام علي آزاد البكرامي
٦. مناهج الدراسات العربية في الهند للدكتور محمد إقبال حسين الندوي

[١] " العلاقات العربية الهندية " للدكتور سيد مقبول أحمد ص: ٢٣